(عادة الطاعة وتكوينها)

(من مذكرات فى الأخلاق لحضرة عبد الحميد افندى حسن)

ان القوانين العامة لتكوين العادة مفصلة فى مواضعها ولست الآن بصدد بيانها . ولكن يجدر بنا أن نلاحظ ان العادة أثبت ماتكون اذا كان أساسها من الغرائز القوية والميول الاختيارية . ولا بد فى تكوين العادة من مؤثر وأثر . فالمؤثر هنا هو ارادة من له على الطفل سلطان ، ورغبة القائم على تربيته . والأثر هو التنفيذ . ولهذه الارادة درجات : من الامر الحاسم الذي لامردّ له ، الى رغبة تتجلى فى مجرد الايحاء أو أى علامة أخرى .

وينبغى أن نتذكر ان الطاعة ليست عامة فى ذاتها ولكنها محدودة بارادة خاصة كارادة الوالدين والمعلمين والكبار من الأقارب ونحوهم .

أما الطاعة العامة لكل أمر مهما كان نوعه ومصدره فهى بعيدة عن أن تعد من الفضائل

والمنبع الاساسى لعادة الطاعة هو غريزة الايحاء التى تحمل المرء على أن يعمل مايخطر بباله . فان هذه الغريزة تبعث فى الطفل الميل الى عمل مايقترح عليه أو يصل الى علمه أو يطرق باب عقله . وهناك منابع ثانوية من الغرائز وهي :

(١) الحركة الجسمية التى تجعل الطفل متعطشاً لتحريك عضله ،

متشوقاً لكل ما يملأ به فراغه ، شاكراً لمن يرشده الى ما يصرف فيه نشاطه وقوته

(٢) المحبة التي تصل بينه وبين أناس يرى ان طاعتهم تتطلبها محبتهم

(٣) الخوف وهو أقلها . غير انه لابد منه : فيه نذلل ما قد تعجز المنابع الاخرى عن تذليله وتملأ ما عسى أن تترك من فراغ . وهو الذي نلجأ اليه اذا لم نجد غيره ، فنستخدمه الى أن نحين الفرصة فنقيم مقامه عوامل أخرى أرقى وأبقى وأكثر نفعا

وللطاعة ارتباط عظيم بالارادة وتدرجها في النمو . وهي من أهم دعائم الخلق . فان الطاعة هي التي تحل محل الارادة الحرة المستقلة التي ستنمو بعد أن يشب الطفل ، فتقوم مقامها وتنوب عنها في ابرام الاوامر حتى تتكون الارادة وتترعرع وتقوى على العمل فتتسلم الزمام . فالطاعة اذن هي أس الفضائل وأهمها في الطفولة . وان الطفل الذي لاتغرس فيه هذه العادة يقع في نقص خلقي ليس من السهل اصلاحه ولا يسير في طرق التهذيب الا كالظالع تزل به القدم

والطفل في المراحل الاولى من حياته ليس له من الارادة ما يرشده ويهديه ، ولا معتمد له في أفعاله وتصرفاته الا غرائز ودوافع نفسية كثيرة العدد متناقضة متضاربة غير منتظمة ، وهي في شجار ونزاع ومصادمة مع ما يحيط بالطفل في حياته العمليه . والسبيل الى التغلب على كل هذا هو عقل ناضج ، وقائد مطاع ، ومرشد يزع الشر ويكون له عليه سلطان . وذلك انما يكون بتهذيب صحيح أول نتائجه الطاعة والاذعان . فبهذا يهذب

طريق البواعث النفسية والغرائز وتتحول تدريجاً الى ارادة قوية تعمل متوائمة مع الحياة وما يعرض فيها من مختلف الامور ، خاضعة لقوانينها وأنظمتها .

وما أكثر الشبه بين مايبدو من الطفل من اذعان وطاعة لاوامر من هم اكبر منه ولارادتهم وبين اذعان الارادة النامية في الانسان لقوانين الاخلاق وللمثل الأعلى ، ذلك الاذعان الذى هو من أهم الوسائل فى تهذيب النفس وتكوين الخلق القويم . فان ذلك الداعي النفسى والوحى الباطنى لأشبه بقوة قاهرة ، ووازع مسلط ، وحاكم لايرد قوله ، ونداء يسمع صوته ، ويطاع وحيه ، ويحس أثره . وما الطاعة فى الطفل الا ممهد لكل هذا ووسيلة لبلوغه ومعين على الوصول الى الارادة القوية ومساعد على فهم حقيقة الانسان فهماً صحيحا

وان ارادة الطفل على أهبة الاستعداد لتسترشد بالوالدين وبالكبار ، ولها ثقة بهم وبصحة آرائهم وصدق نظرهم ، فيطيع الطفل أمرهم ويخضع لارادتهم مسرعاً الى ذلك باعتقاده ان رأيهم حق ثم لا يلبث أن يطيع أذعاناً للحق نفسه . وهذه هي مرتبة الاستقلال فى الارادة والشخصية .

ونظام الجيوش مثال عملى يوضح الطاعة وتدرجها . فالجندى أول واجب يخضع له هو الطاعة لاوامر الرؤساء مهما كانت درجاتهم وأول شرط فى رقيه هو أن يكون مطيعاً فاذا أظهر الاذعان للاوامر والمقدرة عهد اليه فى أعمال أرقى . ولهذا كان من مزايا التعليم الحربى تكوين أفراد

يرون في الطاعة شرفاً وفخراً فيخوضون ساحات المخاطر بقلوب مطمئنة ولا هم لهم الا الاذعان والطاعة ، ونفوسهم تملؤها الشجاعة والاقدام ولا يخطر ببالهم ان معنى الطاعة الحط من الكرامة أو الخور فى العزيمة .

وان الاطفال أيضاً ليعجبون بالمربي الماهر الحازم الصادق العزيمة ويفخرون به ويلقون اليه أزمتهم طائعين . وهم على نقيض ذلك مع المربي الضعيف العزيمة الكثير التساهل

(تربية عادة الطاعة)

ان من يلاحظ مابين الاطفال ومربيهم أو آبائهم من العلاقات والروابط يهتدى الى فهم أهم الوسائل التى بها ينجح المربون فى امتلاك أزمتهم واكتساب طاعتهم . فبعض الآباء لايدخر وسعاً في أمر الطفل والتوسل اليه واستخدام كل الطرق لتذليل ارادته ، وهم مع ذلك لايصلون الى غاية محمودة ولا تثمر جهودهم . وآخرون يكتفون باللحظة أو الايماءة فيسمع قولهم وتنفذ رغبتهم وتصبح أوامرهم مرعية مطاعة فلا يتكلفون عناء التكرار أو الاكثار . وان الطفل ليعرف من عيني مربيه أو والده مقصده وما يريده من اصرار وعزم صادق أو لين وتساهل

فالارادة المطاعة والاوامر النافذة هي نتيجة تأثير قوة نفسية في أخرى واخضاع ارادة لارادة أخرى على النهج المعروف في علم النفس من تأثير القوى النفسية والارادية . وعلى المربي اذن أن يكون له من ارادته وقوة نفسه وصدق نظره مايجعل لنفوذه سلطاناً ولطاعته أثراً . وليقرن ذلك

بالقواعد الثلاث الآتية :

(١) استعمال العقل والحزم فيما يطلب أن يأمر به الطفل فلا يأمره الا بما هو معقول مستطاع فقد قيل : اذا شئت أن تطاع فر بما يستطاع

(٢) الرأفة وحسن الصلة بالطفل ، والعمل لخيره وسعادته

(٣) العزيمة الصادقة وملاحظة مايأمر به والاستمرار فيه الى النهاية واتمام مايباشره مستعملا الفكر والرأفة .

وفوق كل هذا يجدر بالمربي الا يعنف الطفل ويؤنبه على عدم الطاعة. وأنواع العقاب لاتزال سلاحاً فى قبضة المربى وله أن يلجأ اليها . غير ان التبعة كلها في عدم الطاعة راجعة للمربى وعليه أن يبحث في نفسه وتصرفاته عن أسباب الفشل وعدم النجاح

ويجب ان نبدأ بغرس عادة الطاعة فى الطفل من الصغر حيث يستطيع أن يفهم ما يقال له : فنأمره بتنفيذ بعض الاشياء كاحضار كتاب أو لعبه وكوضعها على الخوان أو نحو ذلك مما نستخدم فيه غريزة الايحاء وعمل ما يخطر بالبال ، فنكسب من ذلك أعمال فكر الطفل وتغذية قواه العقلية وتنمية مداركه ومعارفه . وأنه لما يلفت النظر أن نرى من الطفل اهتماما وتهللا وأصغاء لما تأمره به حتى إذا أدرك ماتريد أسرع الى تنفيذه بابتهاج وسرور

ويمكننا أيضاً فى هذا الدور ان نجعل الطفل يدرك معني النعم والنهي فيذعن لها ويخضع لتنفيذها : وهذا يصل بنا الى قاعدتين عمليتين ينبغي أن يعني بهما المربي في تكوين عادة الطاعة وهما :

(١) استخدام الوسائل الايجابية فان كلمة الأمر « افعل أو اعمل » أقرب إلى نفس الطفل وأكثر اتصالا بقواه النامية المتعطشة للعمل من كلمة النهى « لاتفعل أو لاتعمل » التى تصادم قواه النفسية . وبهذه الوسيلة نكسب الطفل نشاطا وقوة فى نفسه وحواسه ونضم ذلك الى صفوف الطاعة وتخضعه لسلطانها ونجعله من أعوانها لامن أعدائها .

أما وسائل النهى فانها تثير حربا بين القوى النفسية والميول ، وبين الطاعة وتزيد الخلاف بينها — حقاً أن النهى يجب أن يكون له محل فى التهذيب والتربية ، وأن الطفل يجب أن يدرك أن لكلمة « لا » نفوذاً يلزمه أن يخضع له — غير أن الوسيلة فى التقويم والتهذيب انما هى فى العمل لا فى الترك وفى الايجاب لا فى السلب

وواجب المربى هو إرشاد قوى الطفل الى ماتستخدم فيه ، وتشجيع حيوية العملية وجعلها أغنى وأوسع نطاقا وأكثر سروراً . وأن نفوذ المربى إذا استعمل في هذا السبيل القويم نشأت عنه الطاعة الحقيقية . وما أكثر ما يقع فيه المربون من الخطأ اذ يعتقدون أن الطفل القويم الخلق هو ذلك الذى لايرتكب شراً أو غلطا ويرون أن حسن السلوك هو والسكون والحياة السلبية سواء ، ويصبح شعار التهذيب وأداة التربية عندهم كلمة « لاتفعل » : لاترفع صوتك — لاتغادر مكانك — لاتقلق راحة غيرك الى غير ذلك . على أنه مهما يكن من الاسباب لتبرير ذلك فليس فيها ما يقوم دليلا معقولا وسبباً صحيحاً . ولقد يغالى الآباء والاقارب فى استخدام هذه الوسيلة السلبية حتى يظن الاطفال أن آباءهم أعداء لنفوسهم النامية ، وعقبة

فى سبيل قوائم المتعطشة للعمل والنشاط .

وربما جال بالخاطر انا نقصد تشجيع التساهل والتراخى ، ولكن الأمر على عكس ذلك ، فانا انما نشجع التدقيق والاحكام ، ونستبقى لوسائل التربية سلطانها العظيم ونفوذها الحاسم . فان تيار النهى اذا كثر عن خطره وأصبح الطفل لايعبأ به ولا يرى له قيمة ولا يكون لكلمة «لا» من الأثر الفعال في نفسه مانريد فى بعض الاحيان ، فيذهب نفوذ التربية شعاعا ولا نجد له من أثر فى المواطن المهمة

(٢) يجدر بالمربين والآباء أن يتجنبوا المنازعات والمشادة والمخاصمات التى يظهر فيها الطفل بمظهر الند أو النظير ، فان ذلك يكون مأزقا ضيقا وموقفا تحيط به المصاعب من جانبيه :

فمن جانب الطفل نجد عنادا ومقاومة وعصيانا وغضبا وحزنا يخيم ظلامه على النفس مدة قليلة او كبيرة ، ومن جانب المربى نجد تسامحا وضياعا للنفوذ والمهابة . وان تجنب هذه المواقف يرجع الى مهارة المربين وحسن تصرفهم وحزمهم . فجدير بهم ان يستعملوا العدل والقسط والآ يأمروا الا بما هو معقول . ومن الخطأ ان يعتبر المربى ارادته قانونا وافقت الصواب او خالفته ، فالطفل يجب ان يطيع ارادة آبائه ومربيه ورائده فى ذلك موافقتها للعقل والصواب وان لم يفهم ذلك احيانا . اما اذا لم توافق ارادتهم الصواب فان نفوذهم يتزعزع وسلطانهم يضعف فى نظار الطفل . فيجدر بالمربى اذن ان يتثبت من صحة اوامره وموافقة تصرفاته للصواب قبل الشروع فى تنفيذها ولاستمرار فى مباشرتها كى يضمن حسن الصلة والمهابة

والنفوذ والطاعة .

ولنعد الى ذكر كلمة عن نفوذ المربي وسطوته وسلطانه على الطفل فان هذا من اهم الوسائل الايجابية لغرس الطاعة .

معلوم ما لغريزة الايحاء وعمل مايخطر بالبال من الاثر فى حمل الطفل على أن يعمل كل ما يوحي به اليه أمراً كان أو نهيا . وهذه الغريزة لحسن الحظ تتضمن اكثر من ذلك ، فان الطفل اذا مابدأ يدرك معنى الامر والنهي ويفرق بينهما نمي فيه الميل الى الاذعان والخضوع ، وكلما سار الى الامام فى قطع مراحل التهذيب والتربية ازداد فيه هذا الميل بما يكتسب من نظام وتجارب وما ينال من ثواب أو عقاب . ولاننكر أن هناك عوامل وميولا نفسية تصادم عوامل الطاعة وتحاول القضاء عليها . ولكن هذا ليس معناه القضاء المبرم او الاستئصال من الجذور : فغريزة الاعتداد بالنفس مثلا هى من الغرائز التى تعارض الطاعة معارضة تامة وتحمل الطفل على أن يعمل مايذهى عنه ، غير ان عوامل الطاعة وعناصرها لاتزال موجودة ونستطيع الوصول اليها باستعمال الحزم والحكمة والعزيمة فى الأوامر والنواهي . أو نقرن ذلك بالشدة إذا اقتضى الحال

وان الطفل بطبعه يذعن للقوة ويخضع لمظاهرها ، فاذا تعهدنا ميوله الفطرية وحولناها الى عادات ثبتت أصولها وبقيت على الدوام ، فالطفل الذى لايجاوز عمره سنة ونصف سنة يدرك الفرق بين النغمة الحاسمة فى الأمر والنهي وبين نغمة التردد والتهاون ويعمل على مقتضى ذلك ، فلا غرابة أن ينشأ ناشيء الفتيان على ماعود فيطيع والديه ومربيه أو لايعبأ

بإرادتهم ولا يصيخ لقولهم، وربما تعالى وخرج عن الحد فوضع نفسه موضع الآمر المسلط، واتخذ له فى كلامه نغمة تشوبها الشدة والقطرسة والنفوذ كأنه ارتقى عرش السطوة والصولة . وما أسرع أن نجد غريزة الاعتداد بالنفس مجالا تمرح فيه وفضاء تشغله وتسيطر عليه فتستبد فى حكمها وتقسو فى تصرفاتها . وهذه هى الحال فى كل غرائز الطفولة

وربما كبرت هذه الاوهام فى عقل الطفل فاعتادها وصدقها واصبحت له ديدنا ، لا مع المربين والآباء فقط بل فى جميع أدواره ومظاهر نموه. وليس لنا أن نغفر ما يصحب النمو من هفوات وما يلازم الغرائز من شدة الى الحد الذى تعدو فيه على نمو الخلق الصحيح وتعترض التربية القويمة وتضر بها ضررا لا يقبل الاصلاح

ولنختم هذا الموضوع بكلمة عن الخوف ومحله فى تربية الطاعة :

للخوف انواع تبتدىء بذلك النوع الغريزى الشديد الاثر فى النفس وتتدرج تدرجا يصحبه العقل والتفكير ، حتى تصل الى الخوف من الوقوع فى الخطأ ، أو من فعل ما يأباه الكمال

(١) أما النوع الأول فهو بعيد عن عوامل نمو الانسان واولى بان نستأصل جذوره من النفس ، وهو عدو مبين وخطر دام فى سبيل النشاط النفسى والنمو القويم ، هذا الى شدة وقعه وسوء أثره

(٢) وهناك نوع آخر من الخوف لا يقل عن هذا فى اثره وسوء عاقبته وهو الخوف من الاثم أو العقاب ، فانه يخمد العوامل الحيوية ويردها على اعقابها ، وأن الطفل الذى لا يأتمر ولا ينتهى الا خوفا من العقاب قد ينشأ

ممن يتفادون الشر وينكبون عن المخاطر، ولكنه لا يتقدم من الجهة الخلقية أو النفسيه ، ويكون خوفه من العقاب ظاهريا لا ينبعث الا اذا تهدده العقاب او حاق به العذاب، حتى اذا زال السبب رجع الى شنشنته الأولى لا يخشى رقيبا ولا يخاف احدا ، فيرتكب المحظور ويقع فيما نهى عنه وعوقب من اجله.

وان كان لهذا النوع من الخوف محل فذلك في الادوار الاولى من الطفولة قبل أن تنضج قوة الفكر والتميز ، فيه يمتنع الطفل من الاضرار بنفسه أو بغيره

(٣) وبعد هذا النوع نوع آخر وهو الخوف مما لا يرضي الآباء أو مايثير لومهم وتعنيفهم . وفى هذا النوع عامل آخر ليس فى مجرد الخوف ، وذلك انه مبنى على محبة الطفل لابويه واحترامه لهما

(٤) وبعد كل هذا يجيء الخوف مما قد يفضي الى مايراه الآباء خطأ . وفى هذا النوع عامل آخر عدا مجرد الطاعة . فان الطفل يكون قد وصل الى حد معلوم من الحزم فى ضبط النفس وقيادتها .

ومن هذا نرى انه يجدر بنا أن نتدرج فى عوامل الخوف حتى نصل الى نوع من الحذر والتبصر ، ثم الى الخوف الناشئ عن الضمير والوجدان. وان الوصول الى هذه الغاية ليستدعي اهتماماً وعناية حتى يتحول الخوف الغريزي الى خوف منبعه ادراك الخطر والتنحي عن الضرر ، والخوف الناشئ عن عوامل شخصية الى خوف مبنى على احترام الفرد لآراء أقاربه ومربيه وغيرهم وعلى مراعاة منزلته فى المجتمع وفى اسعاد بني الانسان.

عبد الحميد حسن
المدرس بدار العلوم